

## فكر

# وليام ت. كافانو هفكاً «أسطورة العنف الديني»

**محمد مهدي عيسوي**

«لماذا بكرهوننا؟»
سال جورج بوش اعقاب أحداث الحادي عشر من ايلول.
ولان الأسطورة جاهزة دائما لتقديم إجابات يصعب تنفيذها وإخضاعها للمساءلة، وبالتالي قادرة على التملص من مراجعة تاريخ السياسة الخارجية للنظام الأميركي، فقد وجد بوش الجواب فوراً: «لنهم بكرهون حرياتنا؛ حريتنا الدينية وحرينا في التعبير عن ارائنا.»
أما الثانية، فتقع في الفهم الجوهري لنبرير بوش يجد مرجعيته في واحدة من أكثر الأساطير شيوعاً في الغرب، هي: «أسطورة العنف الديني» التي تقول إن الدين ذو نزعة أصيلة متشعبة على العنف، ينبغي الحد من تبعاتها واثارها المدمرة بالتحول دون وصول الدين إلى السلطة العامة.
أما إن لم نفعل - او لم نفعلوا - فإن حرياتنا بل وجودنا سيخل ههداً وأبلاً إلى التلاني في أي لحظة.
عليه، يمكن عد كتاب وليام ت. كافانو، أستاذ الدراسات الكاثوليكية في «جامعة دويول» «أسطورة العنف الديني: الأيديولوجيا العلمانية وجذور الصراع الحديث» (2009) الذي نقلته «الشبكة العربية للإبحاث والنشر» أخيراً إلى المكتبة العربية (ترجمة أسامة غاوجي)، نوعاً من الفضح العلمي للتيباسات هذه الأسطورة وهشاشتها انطلاقاً من مساءلة ادعاءاتها التفسيرية.
خلفاً لتوجهات باحثين آخرين سعوا إلى تبيان خطورة العنف المتولد عن المؤسسات العلمانية في محاولة لإعادة توزيع اللوم بين العلماني والديني، أو إلى نزع مقولة الدين «وصفاً لواقع اجتماعي» للعنف باسم الدين، يتخذ كافانو طريقاً آخر أكثر جيدة.
يطرح إشكالاً تجاوزته الحوث المغلفة بالبهاثة: كيف تم تأسيس ثنائية الديني والعلماني؟
في مقدم كتابه، أي بعد تحليله لآراء عدد من الأكاديمين حول منشأ العنف الديني، يخلص كافانو إلى أن اللبس الحاصل عند هؤلاء في التمييز بين ما هو ديني وما هو علماني، راجع في أساسه إلى تشوش ظاهر في مساعهم

إلى تعريف الدين تعريفاً مقنعاً وقادراً، ومن ثمّ الفصل بين العنف الديني والعنف العلماني. فالتناقض الداخلي والتردد بين توسيع دائرة تعريف الدين، لتشمل أديانا لا تؤمن بالمفارق الكالكونفوسية أو البوذية مع ما يؤديه ذلك من إدخال لظواهر علمانية كالشيوعية والقومية في الدائرة نفسها، أو تضيقها وما يعنيه ذلك من إبعاد لعدد كبير مما يمكن أن يكون ديناً، هو العقبة الأولى التي

عجز هؤلاء الأكاديميون عن تحطيلها.
أما الثانية، فتقع في الفهم الجوهري للدين حيث يُدرس الدين بوصفه مكوناً قسماً للحروب الدينية بل للقافة، وهو ما يثبت كافانو بطلانه. إذ يحتاج بيان مقولة الدين هي مقولة اخترعها الغرب كجزء الخلق الخاصة بالحدثة، وصف هذه الحداثة وتحت تأثير توزيع وترتيب جديد للسلطة انعكس في إقامة ثنائيات: العلم/الأبلا إلى التلاني في أي لحظة.
الدين/الخاص الكنيسية/الدولة، البروتستانتية والكتوليك السادس عشر والسابع عشر، بانها أسطورة الخلق الخاصة بالحدثة، وصف هذه الحروب بالحروب الدينية هو أول ما يستوقف كافانو. فالحروب - كما بين بعضه بوضاً وأخرى بين اللوثريين البروتستانت والكتوليك حصراً كما يتناح - إذ نشبت حروب بين الكاتوليك أكثر من مرجع تاريخي - لم تكن بين العام/الخاص الكنيسية/الدولة، لأنهم في حين تحالف اللوثريون والكتوليك في أكثر من موضع، فإن قلنا مستنتجين بأن عوامل غير دينية كانت مؤثرة في تسعير هذه الحروب والنزاعات، فإلى أي حد يمكن فصل العوامل السياسية والاقتصادية وغيرها عن العامل الديني لنقيس أثر كل عامل في إشعال هذه الحروب؟
إن عزل الأسباب وقياس حجم تأثيرها أمر متعذر كما يعتقد كافانو، وبالتالي فإن تحديد المسبب الموضوعي لهذه الحروب ليس بالسهولة التي يظنها بعضهم، أما بخصوص الجزء المكمل للأسطورة - القصة، الذي أقره فلاسفة الحداثة الأوائل كسيبنوزا وهوبز ولوك ثم تناده الفلاسفة والمفكرين الليبراليون المعاصرون كرولز وفوكوياما والمثال بان الحديث الحديث هي التي وضعت حدا لهذه الحرب الدينية، فإن كافانو يتبنى رأيا إيديكاليا مخالفاً بقول بان «مفهوم الدولة الحديثة لم يكن حلاً لهذه الحروب كما يصور هؤلاء، وإنما كانت

الغربية، والأمر نفسه ينطبق على الكونفشيوسية والشتنو. لكن ما الهدف من تأسيس مقولة الدين خارج الغرب؟
إن هذه المقولة التي تولدت بهدف التغريب والتحديث، تشكل بحسب كافانو أداة للعلمنة وتطويق العناصر المهمة في الثقافات غير الغربية، وتحويلها إلى شؤون فردية منفصلة عن الشأن السياسي العام. وهذا ما يضمن تطويق إرادة المستعمر وإحكام سيطرة المستعمر عليه.

يصف كافانو أكثر القصص استحزاراً عند الحديث عن عنف الدين وهي قصة الحروب الدينية بين الكاثوليكية والبروتستانتية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، بانها أسطورة الخلق الخاصة بالحدثة، وصف هذه الحروب بالحروب الدينية هو أول ما يستوقف كافانو. فالحروب - كما بين بعضهم بعضاً وأخرى بين اللوثريين البروتستانت والكتوليك حصراً كما يتناح - إذ نشبت حروب بين الكاتوليك أكثر من مرجع تاريخي - لم تكن بين العام/الخاص الكنيسية/الدولة، لأنهم في حين تحالف اللوثريون والكتوليك في أكثر من موضع، فإن عملية الفصل ممكنة. وبما أنها ممكنة، فإن الخلط بين الجالين، ما هو إلا تعصب وطائفية وعنف غير مبررين.
لقد أسهم اختراع هذه المقولة كذلك في تسهيل عملية نقل الولاء العمومي من المسيحية إلى الدولة القومية. من خلال قدرتها على الفصل والتخصيص، فقد جنبت المواطن المسيحي عيش صراع الولاء بين الدولة والكنيسة. ولهذا لم تكن مقولة الدين «وصفاً لواقع اجتماعي جديد، بل إنهما ساهمت في جلبه إلى الوجود وتدعيمه».
أما مفهوم الدين خارج الغرب، فلم يتاسس إلا تحت تأثير الاستعمار الغربي. على سبيل المثال، مصطلح مكافئ لمصطلح الدين؛ حتى إن مصطلح «هندوسي» لم يكن معروفاً في الهند الكلاسيكية. أما البوذية، فلم تكن - حسب فيليب أوند - إلا ابتكاراً غريباً ظهر في مكتبات الاستشراق وفي المعاهد



### يجاجج بان مقولة الدين اخترعها من ايديولوجيته الناشئة

نفسها سبباً لإزكانها في صيرورة انتقال السلطة من الكنيسة إليها أو بمعنى آخر «هجرة القدس» من الكنيسة إلى الدولة المدنية» إله هوبز الفاني.
إن الدولة الصاعدة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، والساعية إلى حصر السلطة في يدها مع ما يعنيه ذلك من شعورية معينة، خصوصاً إذا تعذر إيجاد مرادفات لغوية شبيهة لها، أو إذا لم تسعفها معاجم المعاني المنقولة إليها. تعددت الترجمات العربية لقصيدة «الأرض الخراب» لت. س. البيوت. وقد احتاجت تكراراً في المحالوة مرات عدة، إذ لم يسبق لشاعر أن ترجمها باستثناء الترجمة الأولى على يد ادونيس ويوسف الخال عام 1958.
لعل ترجمة توفيق صايغ كان يمكن أن تكون الأولى لو تبسّس نشرها وقتها، أي قبل عقود من أن تصدرها «منشورات الجمل» عام 2016 في نسخة «الأرض الخراب/ مع التفسيرات النقدية الجديدة»، مرفقة بمقدمة ودراسة نقدية للشاعر والباحث العراقي محمد منقول.
لقد حال موت الشاعر الفلسطيني المبرك دون الكشف عن أولى الترجمات غير المنشورة وأكثرها جمالاً لأنه لا يمكن إلا لشاعر أن يبلغ روح النص المترجم.
لعل الظهور المتأخر لترجمة توفيق صايغ يواز في أهميته ظهور النسخة الأصلية من قصيدة البيوت التي ضاعت دورها لفترة طويلة.

وذلك لما في الترجمة من قراءة جديدة لعوالم القصيدة الغامضة، ما كان لتغيرات المناهج النقدية في الغرب والابتكارات التحديثية في التفكير والعقائلي الذي لا يحمل طابعاً رمزياً ومقدساً، فصبح عنفاً مطلوباً، وخاصة في مواجهة شعوب البلاد التي لم تتعلم بعد كيف تتخلص من عنف الدين. وفق ترتيبات هذا المخط، يصبح النخلص من المتشدين والمعادين للنموذج العلماني خياراً مشروعاً، فما دام هؤلاء مصريين على المحافظة على عقائدهم اللاعقلانية والخطرة، فإنه - ولا حرج - من «البربر البشر المسامحين أن يقتلوهم، كما يصحح سام هارس إن تحجيد دراسة سياسة الغرب الاستعمارية تجاه العالم غير العلماني والبحث عن أسباب «أكثر عمقا» كامنة في المفك الديني والثقافي لهذا العالم، هو واحدة من الاستراتيجيات الكثيرة الهادفة إلى تهيئة الذات الغربية وتأييد العنف الشرعي للدولة العلمانية.

## كلمات

## شعر

# «الأرض الخراب»: ترجمة توفيق صايغ ولو بعد عقود

### محمد ديب

ليس هناك في الترجمات الأدبية، ما هو أصعب من نقل الشعر من لغة إلى أخرى. لا شيء أصعب من نقل شعر لغوي لشاعر ما عن حالة شعرية معينة، خصوصاً إذا تعذر إيجاد مرادفات لغوية شبيهة لها، أو إذا لم تسعفها معاجم المعاني المنقولة إليها. تعددت الترجمات العربية لقصيدة «الأرض الخراب» لت. س. البيوت. وقد احتاجت تكراراً في المحالوة مرات عدة، إذ لم يسبق لشاعر أن ترجمها باستثناء الترجمة الأولى على يد ادونيس ويوسف الخال عام 1958.
لعل ترجمة توفيق صايغ كان يمكن أن تكون الأولى لو تبسّس نشرها وقتها، أي قبل عقود من أن تصدرها «منشورات الجمل» عام 2016 في نسخة «الأرض الخراب/ مع التفسيرات النقدية الجديدة»، مرفقة بمقدمة ودراسة نقدية للشاعر والباحث العراقي محمد منقول.
لقد حال موت الشاعر الفلسطيني المبرك دون الكشف عن أولى الترجمات غير المنشورة وأكثرها جمالاً لأنه لا يمكن إلا لشاعر أن يبلغ روح النص المترجم.
لعل الظهور المتأخر لترجمة توفيق صايغ يواز في أهميته ظهور النسخة الأصلية من قصيدة البيوت التي ضاعت دورها لفترة طويلة.

وذلك لما في الترجمة من قراءة جديدة لعوالم القصيدة الغامضة، ما كان لتغيرات المناهج النقدية في الغرب والابتكارات التحديثية في التفكير والعقائلي الذي لا يحمل طابعاً رمزياً ومقدساً، فصبح عنفاً مطلوباً، وخاصة في مواجهة شعوب البلاد التي لم تتعلم بعد كيف تتخلص من عنف الدين. وفق ترتيبات هذا المخط، يصبح النخلص من المتشدين والمعادين للنموذج العلماني خياراً مشروعاً، فما دام هؤلاء مصريين على المحافظة على عقائدهم اللاعقلانية والخطرة، فإنه - ولا حرج - من «البربر البشر المسامحين أن يقتلوهم، كما يصحح سام هارس إن تحجيد دراسة سياسة الغرب الاستعمارية تجاه العالم غير العلماني والبحث عن أسباب «أكثر عمقا» كامنة في المفك الديني والثقافي لهذا العالم، هو واحدة من الاستراتيجيات الكثيرة الهادفة إلى تهيئة الذات الغربية وتأييد العنف الشرعي للدولة العلمانية.

## رواية

# محمد حيواني: السلطة كما تمثلها الأنثى

**كه بلان محمد**

لاوامر صاحبة البيت. وهذا الجانب من شخصيتها يحيلك إلى شخصية جبلاوي في رواية «أولاد حارتنا». كما أنّ العنوان «بيت السودان» يُذكر بما عرفنا من محمد حيواني وظلغة المحرك دفة السرد من خلال ثنائية العالم بين محورين الأول يتجسّد في بيت السودان الذي يعد ملاذاً للنساء اللواتي يهربن من الأهل ويحتمين بالبيت الواقف في الطرف القصي من المدينة حيث تقام ليالي الجمعات، وحفلات رقص يتوافد إليها الكسبة والكادحون كأنهم يجدون في ذلك عزاءً من قساوة الحياة. وما المحور المقابل سوى عبارة عن كل ما يقع خارج أسوار البيت، ومن المعلوم أنّ الأمكنة تعتبر عن طابع أصحابها، وتنعكس في مناحها ظلال سلوكياتهم وطقوسهم. كما يشكل المكان خلفية للشخصيات الروائية، ويحدّد رؤاها والمديات التي تتحرّك فيها. أمّ تراه بوضوح في علاقة باقوت بالبيت الذي سنّت قوانينه من جانب، ودور بيت السودان في نشأة شخصية علي ومصيرها في المنفى كتيبة مهمّة آخر. إذ لا يفصل البعد المكاني المتمثل بالبيت عن شخصية المريية في ذهنية الطفل اللقبط بحيث يصبح شخصية إنطوائية ولا مبالية تعجز عن التواصل مع الأوساط المختلفة عن بيئة البيت. ولا ينسلخ علي في كل أطواراته، بل في أطرها الغنائية. هكذا، يبدأ بإرهاصات التشكل الغنابي الذي يتصلب بفنّة الأنثى، كما تطارد روح تقيّة الغزاة التي انتحرت بعدما خاب أملها بحبه وطرفتها باقوت من البيت عندما تنهت لحاولتها لغواية علي. عندما فلا يجوز القيام بما يدنس المكان وفقاً

العلاقة بين الإثنين. وحين يتوارى الفتى عن انظارها، تستحويه حول تفاصيل دقيقة وطبيعة تواصله مع عفا التي تحض بالجرأة، وتنايب صديقها كونه بعيداً من النشاطات السياسية في الوسط الجامعي، وما برحت تسعى لإعرة مشاعره المخدبة تجاهها. ولا تحجب هذه الشخصيات الثلاث الأساسية في دعم قوام الرواية، الأضواء عن غيرها. فإنّ ضمد، حارس الآثار في منقطة أور الغنية بالقطع الثمينة حيث ترقد رفات الملوك السومريين، يتبدّل ههؤ البيت وحقته السكونية إلى أجواء مشحونة بالترقب والتوتر بتكهناته المُخمّدة على قراءة الرُقم السومرية. وبينما احتفل بتراخي سلطة النظام وحمولات إزالة آثار الحزب المتنفذ عقب كارثة الحرب، أسر ضُمد للراوي بأنّ الجيش سيعود إلى المدينة وأخبره بزول العماليق في أور. ويُضفي الرواية تفاعلاً أرواحياً



هذا السياق أنّ مقاربة محمد حيواني لهذا الموضوع جاءت من خلال الصوت الأنثوي المهيم على الرواية.

العلاقة الإشكالية القائمة بين بعضها بوجود تناسخ لآرواق الشخصيتين الأساسيتين باقوت وعلي تشخّن جسد النص على امتداد وقوعها في شرك الخطاب السياسي التجهييلي، وتدخّلها لإطلاق سراح الجياشة إلى ورطة بالنسبة للجناين. وعليه، فإنّ روايات متعددة حول أصل الفتى المغاير بلون بشرته البيضاء عن النساء الغامقات، تتجسّ أسئلة عن دور شخصيّة تبدو متازمة وتعاني العطب



والغموض الذي يميّز ثنائيات الذكر والأنثى المتعارضة، والتي تتسجم مع فكره بهوية متعددة أو جمعية إلى حد ما.
ربما تكون هذه المسألة التي أغفلها غالبية النقاد نافذة لإعادة قراءته باحتمال جديد، بلقي بالضوء على الجذور النفسية للقصيدة. إذ إن هذه النزعة تشير إلى قلق الهوية الجنسية عنده، وربما كانت هذه مرحلة فاصلة في حياته غير موسومة بها.
إذا كان باحثين قد فتح الباب لتقنية الأصوات المتعددة، أو ما

سُمي بالبوليفونية في النصوص الروائية، فإن الأمر ينسحب كذلك على النصوص الشعرية. «الأرض الخراب» هي كرنفال احتفالي لأصوات الموتى في كون يعيش خرابه الروحي والمادي. وإن كانت برمقتها إدانة لزمّن ما بعد الحرب، إلا أنها لا تعبر عن تدمير شخصي أو مناجاة لآخر، بل هي نوع من تعدد الأصوات، تتارجح ما بين شخص أسطورية، وإبطال أعمال أدبية؛ ولا يدخل الأمر من أشخاص واقعيين. الأصوات غير البشرية في قصيدة البيوت مثل صوت التلخ مع الزمن وامتداداته المجازية البعيدة باعتبارها إشارة مبكرة للزمّن الفني داخل الزمّن الفيزيائي ضمن تناوب للأسطورة، والتاريخ، والواقع، والنصوص الدينية، والأعمال الأدبية الأخرى وتفاصيل الحياة اليومية للبشر ما بعد الحرب العالمية الأولى. يقول البيوت إن العمل الفني لا يمكن تفسيره، إنما يمكن توضيح الحقائق التاريخية المتعلقة بالموضوع. لعل أبرز ما يميّز هذه الترجمة هو تركيزها لخصوصه كشواهد على زمانها، والإلتصاق على نواح نفسية في شخصيته من خلال لحظة التدفق الشعوري الدقيق والمثقف في عمل الأعمال، لتلقي جذوة التشفير والاكتشاف دائمة التوقد على رغم عبثية الوصول لنهنتي عند قوله: «لا يمكن أن توقف استضافتنا/ وفي نهاية بحثنا كله/ سيجوز الوصول إلى حيث بدأنا/ ونعرف المكان لأول مرة».

بعيداً عن سيدة «بيت السودان»، فالأخيرة أيضاً تتفنّد إلى صيغة توصيف صارحها برغبتها في التواهب عندما بصارحها بلغته في التواصل الحسي، كما لا تريد أن يعقد علاقة جسدية مع الإنات الأخرجات. لذا، لا تُفاجأ أن اعتراف علي أمام صديقتها بأنّه معطوب من دون باقوت، وهذه الحالة قريبة مما تصّر به شخصية كامل في رواية «السراب» لتنجيب محفوظ. يذكر أنّ المؤلّف يتناول هذه الثيمة الحساسة من دون تدنّي اللغة إلى مستويات مبتدلة ومنتهكة على رغم الإسهاب في وصف الجسد. فضلاً عن ذلك، فإنّ محمد حيواني يُمرّر عبارات مُكفّدة على لسان شخصياته، كما نقوله باقوت عن وقع الحب لدى الأنثى، يسمو إلى مرتبة كلام من نذر نفسه للعشق: «اعرف أرواح النساء عندما يتعلقن برجل ما يبقى عالقاً في شعناج أرواجهن حتى بعد أن يفتنّ»

يستحضّر الكاتِب في تضاعيف السرد شخصيات أنثوية ذات بعد أسطوري مثل أنخبديانا التي تعد مثلاً لأدوار المرأة المتعددة في التاريخ، الشاعرة، أما بوحى الملك، الكاهنة ضف إلى ذلك ما بوحى بوجود تناسخ لآرواق الشخصيتين الأساسيتين باقوت وعلي تشخّن جسد النص على امتداد وقوعها في شرك الخطاب السياسي التجهييلي، وتدخّلها لإطلاق سراح الجياشة إلى ورطة بالنسبة للجناين. وعليه، فإنّ روايات متعددة حول أصل الفتى المغاير بلون بشرته البيضاء عن النساء الغامقات، تتجسّ أسئلة عن دور شخصيّة تبدو متازمة وتعاني العطب